الشموع والشموس

لجبران الريحاني

صوتان يتصاعدان من اعماق النفس النجيبة ، صوتٌ يسأل دائماً : وما الفائدة لك وللناس من كل ما تعلم ؟ وصوتٌ مؤنّب يقول : وما علمك كلهُ اذا قيس بما تجهل من العلوم ؟ انه تكثير الشمعة بالقياس الى نور الشمس

صوتان ، صوت يزهدني في العلم ، وصوت يستزيدني منهُ . ولطالما أصختُ الى الصوت الثاني ، فاصبحتُ شمعتي شموعاً ، تنير القريب من مسالك الفكر والخيال ، فانظر اليها بين قريرة وانا اقول : زدني اللهمَّ نوراً

وبعد ذلك ، بعد سكرة من سكرات النور ، اسمع الصوت الاول ، صوت التأمل والريبة ، فاصامُ واصلّي

— اهدني ، اللهمَّ ، السبيل القويم الى مطلع الشموس والاقمار . اجعل النور قبلتي الدائمة ، ومنبتي القصوى ، وحجتي المقدسة . ان أظلم الشرق فامحُ اسم الشرق من قلبي ، وان أظلم الغرب فانزع اسم الغرب من دنياي . نأياً ، اللهمَّ ، عن اقطار هوتْ كواكبها ، وافلتْ شموسها . لا تجعلني ، ربي ، قيد ظلمات مصابيحها كبريق الحباحب في الادغال ، او كوميض القصفور ليلاً في البحار . نوراً ، اللهمَّ ، وان في الصحاري المقفرة . نوراً وان في اقاليم السود والصفر من الشعوب . نوراً وان في اقطاب الجليد المهلكة . نوراً وان كان في النور فناء ابدي

ولا اكاد انتهي من صلاتي حتى اسمع الصوت الاول يقول ويردد القول سائلاً : وما الفائدة لك وللناس من كل ما تعلم ؟ ما الفائدة من النور الذي تزداد في ازديادهِ مناطق اللانهاية المظلمة ؟ أفلا يُفضَّل عليهِ نور الشمعة القريبة منك ، وهو يريك ظلك وقد تعاظم ، ويريك الظلمة وقد بدت شفافةً ، ضئيلةً ، محدودة ؟ اجل ، انك في نور الشمعة كبير الظل ، عظيم القدر . انك سيد المخلوقات جميعاً . وانك لذلك قريب من الرب المفروض عليك ، ربّ أمك وابيك ، ربّ اجدادك ، ربّ الرسل والانبياء ، وقد رُوي انهُ قال باللغة العبرية : انا الرب الهك ، لا آلهة لك غيري . وباللغة العربية : وانا ربكم فاتقون .

صوت يرهبني في العلم، ويزيّن لي السكينة والتباعة، والورع والطاعة، ثم يقول: هو ذا جزاء الاكتفاء. فاكتفِ. وهل اكتفى بنور شمعة من العلم والايمان؟

شمعة من الايمان، وتعظيم للانسان، وتحقير للزمان، وتسخير للاكوان! وبعد ذلك ماذا؟ أمن أجلي انا أُنشئت الكائنات؟ أيُسَيِّر الكوخ البشري، هذه الارض، خلق الله الكواكب والنجوم، والشموس والاقمار؟ ان ذلك لجميل، وان الله في كرمه لعظيم

وانا مع ذلك أنشد النور، واجتريء فأتدلّل عليه تعالى. انك، ربي، كريم جداً، فزدني من كرمك الذي لا حدَّ لهُ. أَنِرْ لي الشمس القصوى، شمس قلبك لِيراها قلبي. فقد ملت النظر الى شمس الانسان، والى قمره ونجومه. أَنِرْ لي شمس روحك، لتراها روحي. فقد كَلَّ البصر من الأنوار التي تكسر اشعتُها بين سحُب الشك واليقين، وقد سئمت النظر والتبصُّر في كتب الايمان والكفر، وليس في حروفها وكلماتها ما ينير الجادة اليك. نوراً من لدنك ينيرها. فقد أضعتُ كتاب إيماني عفواً، يارب قد نبذت ذلك الكتاب المسجَّل فيه إيماني الاول وكفري الاول فهل هناك ما هو اقرب منهُ اليك؟ أَنِر لي السُّبُلَ لأبحث عنهُ. أَدنني في الأقل من نور شمعتك الخاصة، شمعر قلبك، بيت قصيدك

أفلا يجوز أن أخاطب الله بمثل هذا الخطاب، وهو الذي خلق من أجلي الشمس والقمر؟ خلقهما من أجلي؟! اذا كان هذا الوهم ينبوع ايماني الاول، أفيُستغرَب ما كان من كفري بعد ذلك؟

وما الفرق يا ترى بين ذلك الكفر الأول، وذلك الايمان؟ ما الفرق بين شمعتين بنيرتين الواحدة منهما غير المنطقة الاولى الصغيرة من مناطق الظلمة؟

شمعة بيضاء مذهبة العنق، أنارتها لأول مرة أمي، ووضعتها بين يدي، وشمعة صفراء أشعلها من اجلي بهالة الفكر في الغرب، فرميت بتلك المذهبة العنق ومشيت حيناً من الدهر في نور هذه الصفراء، بل في نور الصفراء الأصفر، وقد ذهّب حواشي الظلمات أمامي، فاراني فيها النفس كأنها منعكسة في مرآة مكبّرة، فراعني من الجذل والعجب ما عرا آدونيس يوم رأى وجههُ لأول مرة منعكساً في الماء. هي نفسي، وقد تجسمت وتجلت أمامي، فكيف لا انهال بها هاتفاً لها، ومكبراً اياها

وقد تهللت ، وقد اكبرت . ثم سمعت الصوت الاول ، صوت الريبة والتساؤل يقول : وماذا يفيدك الاعجاب بنفسك ؟ وماذا ينفع جمالها الخيالي ؟ هل تعليمك هذه النفس اذا ما امرت ؟ وهل هي تستطيع ان تعمل بما انت آمرها ؟

أنر لي شمعتك الخاصة ، يارب الشموس ، لأبحث عن نفسي التي أضعتها مساء امس هذه الضراعة جميلة ، وان فيها خيراً ونعمة . فهل يمكنك أن تقول للنفس الغريرة : أشعلي لي كوكباً من كواكب الحقيقة لأبحث عن الآلهي الذي اضعته الليلة البارحة ؟

اقول لا ، وأقول نعم . ومما لا شك فيه اني ابتغي النور في الحالين . على اني في حاجة إلى النور الاسنى ، الى النور الابهى ، الى النور الخالد الازلي . وان كنت قد اطفأت شمعتي البيضاء والصفراء ، وغسلت يدي مما تساقط عليهما من ذوبهما ، فذلك لاني اصبحت ولا ارضى بالنور الذي يريني الكون في صورة مادية ، كأنه خلق من اجل نفسه ، كما اني لا ارضى بالنور الذي يريني في صورة دينية محدودة كأنه خلق من اجلي

ولكن صوت التساؤل والريبة يقول : انك جزء من الكون الذي تصف ، فاكشف . اما النور الاسنى ، فانه يريك الكون الاكبر . وفي الكون الاكبر تصغر ، ثم تصغر ، فتضيع ، وقد تضمحل . فهل هذا هو النور الذي تنشد ؟ هل هذا هو العلم الذي تطلب الزيادة منه ؟

اجيب نعم . هو النور الذي يهديني الى ذرى الفكر ، فأرى منها ما لا اراه وانا في الاغوار احمل شمعة مذهبة الشق ، او شمعة عسلية . اجيب نعم . هو العلم الذي يرفعني الى ذرى الفكر واليقين ، فاسمع ما لا اسمعه وانا في ضجة من العبادات عبادات الدنيا وعبادات الآخرة ، عبادات النفس والجسد ، وعبادات الاولياء والقديسين

اني في تلك الذرى جزء من الفكر الخالد الازلي ، وعند الفكر الازلي الخالد تنتهي العبادات كلها . اني في تلك الذرى زهرة من أزهار الحب الدائم العميم ، وفي الحب العميم الدائم تتلاشى العصبيات الدينية والقومية كلها . اني في تلك الذرى بذرة من بذور الخير الانساني الاكبر ، وفي الخير الانساني الاكبر تضمحل الضغائن ، وتزول الخصومات ، في مشارق الارض ومغاربها ، وبين الامم جمعاء